المبحث الثاني[1]: المسائل الثلاث:

بعد أنْ فرغ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بيان المسائل الأربع السابقة بأدلتها، شرع في ذكر ثلاث مسائل أخرى مما يجب على المسلم تعلمه، فقال:

«اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ ثَلاثِ هَذِهِ المَسَائِلِ، والْعَمَلُ بِهِنَّ:

الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥ - ١٦]».

الشرح:

هذه المسائل الثلاث مسائل مهمة في الدين، وخلاصتها:

المسألة الأولى: تتعلق بالربوبية والرسالة.

المسألة الثانية: تتعلق بإفراد الله بالعبادة.

المسألة الثالثة: تتعلق بالولاء والبراء.

- فالمسألة الأولى: «أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا»:

(١) من الفصل الأول (المقدمات).

الله - عز وجل - خالق كل شيء؛ خلقنا وخلق جميع الموجودات. ومعنى خَلَقَ: أوجد الأشياء، وأبدعها على غير مثال سابق.

والأدلة على ذلك كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، وقوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وغيرها.

وأما الدليل العقلي: فقد أشير إليه في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، هذا على قاعدة ما يُسمى بـ«السَّبر والتقسيم»؛ لأنه من حيث النظر العقلي ليس إلا ثلاثة احتمالات، لا رابع لها:

الاحتمال الأول: أن هذا الإنسان خَلق نفسه! وهذا باطل؛ لأنه كان عدما، والعدم لا يمكن أن يُوجِد نفسه.

الاحتمال الثاني: أن هذا الإنسان خُلِق صُدفة بدون مُبدِع، وبدون خالق ومُوجِد، وهذا أيضا باطل؛ لأن كل حادث لابد له من مُحدث، وكل موجود لابد له من موجِد.

وهذا أيضا بمقتضى العقل والفطرة لا يتصوَّرُه أحد، فلو أن إنسانا رأى قصرا مشيدا أو سفينة كبيرة تمخَرُ عُبابَ الماء فلا أحد يتصور أن هذه السفينة

وُجِدت صدفة، كما جاء في مناظرة الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع أولئك الطائفة الذين أنكروا وجود الله – تعالى –[1].

الاحتمال الثالث: وهو أن تكون هذه الموجودات لها خالق ومُوجِد، وهذا هو الحق، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا قال تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ**﴾ [الطور: ٣٥].

وجاء في صحيح البخاري عن جُبَيرِ بن مُطعِم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿**أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ**﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ»[2]؛ لأنه كان يدرك مقتضيات اللغة ومدلولاتها.

---

(١) ينظر: «شرح العقيدة الطحاوية» ص٢٦ وما بعدها، و«شرح الفقه الأكبر» للقاري ص١٤. ولفظها: «أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة تذهب فتمتلئ من الطعام وغيره بنفسها، وتعود بنفسها، فترسو بنفسها وترجع، كل ذلك من غير أن يديرها أحد؟ فقالوا: هذا محال لا يمكن أبدا، فقال لهم: إذا كان هذا محالا في سفينة، فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله؟ ... ».

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٨٥٤) واللفظ له، ومسلم (٤٦٣).

فتبيَّن بالأدلة النقلية والعقلية أن الخَلْق لا يكون إلا لله، والمراد بالخَلْق: إيجادُ الأشياء وإبداعُها على غير مثال سابق، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

وما ورد من إضافة الخلق إلى المخلوق، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠]، وفي الصحيحين أنه يقال للمُصوِّرين: «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»[1]، ليس المقصود به الإيجادَ من العدم، وإنما هو تحويل للشيء من صورة إلى صورة أخرى. أما خَلْق الله: فهو إيجاد من العدم على غير مثال سابق.

وهذا الخلق يسيرٌ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال الله - جلَّ وعلا -: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ...﴾ [الأحقاف: ٣٣]، إلى آخر الآية.

- ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَرَزَقَنَا»:

والرزق: هو ما يُنتفع به من مال أو مطعوم أو غيرهما، فكل ما يُنتفع به فهو رزق، ويكون في الدنيا وفي الآخرة.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

والرِّزق بمعنى المَرزُوق الذي يُعطاه المخلوقُ، أما الرَّزْق (بالفتح): فهو المصدر، أي: فِعْلُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ودَلَّ على أن الله هو الذي يرزق المخلوقات أدلةٌ كثيرة - أيضا -؛ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقوله جل وعلا: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

ومن السُّنة ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في مراحل خلق الجنين، والشاهد منه قوله ﷺ: «**ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ**»(١).

وقد جُمع الرِّزق مع الخلق في آية واحدة في قوله - تعالى -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ...﴾ [الروم: ٤٠]، فهو الخالق والرازق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا»:

يعني: مُهمَلِين سُدى ضائعين، كما قال جل وعلا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ...﴾

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٤٥٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٦٤٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[المؤمنون: ١١٥]، يُنزِّه الله عن مثل هذا العبث، قال جل وعلا: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

- فلم يتركنا الله هملا ضائعين مهملين سدى، وإنما «أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا»، وهو محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وبِمَ أرسله الله؟

قال جل وعلا: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فأرسله الله لتزكية النفوس، وتلاوة الآيات، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه.

- قوله: «فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»:

أي: من أطاع الرسول دخل الجنة، وهذا منصوص عليه في آيات كثيرة؛ كقوله عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

وقال النبي ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي دَخَلَ النَّارَ»(١).

---

(١) **حسن**: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٠٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسَّن سنده محققو المسند (١٤/٣٤٣). وأخرجه البخاري (٧٢٨٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «... وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى».

والواجب طاعة النبي ﷺ، بل طاعة كل نبي ورسول، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

- وقوله: «وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ»:

هذا - أيضا - مقرَّرٌ وثابت بالنصوص الشرعية، كقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [النساء: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، وفي الحديث السابق: «**وَمَنْ عَصَانِي دَخَلَ النَّارَ**»(١).

ودخول النار نوعان:

النوع الأول: دخول إلى أبد، أي: دخول مؤبد، وهذا للكافر؛ فمن مات على الكفر فإنه يدخل النار خالدا مخلدا فيها - والعياذ بالله -.

النوع الثاني: دخول إلى أمَد، وهذا لعصاة الموحدين، فمن مات على التوحيد وعنده معاصٍ، وشاء الله أن يُعذِّبَهُ فإنه يُعذبه بالنار لكنه إلى أمد، بحسب علم الله وبحسب أعمال العباد.

واعلم أنه قد يجتمع في الموحِّدِ طاعةُ الرسول ﷺ ومعصيتُه؛ وهذا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه. وإن عذَّبَه فإنه لا يُخلَّد في النار

(١) تقدم تخريجه.

كما سبق، والدليل - كما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ - قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥ - ١٦].

- قوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾»:

الخطاب لكفار قريش والمشركين.

- وقوله تعالى: ﴿رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾:

الرسول يشهد على هذه الأمة بما عَمِلت، والأمة تشهد لهذا الرسول بالبلاغ؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]» وَالوَسَطُ: العَدْلُ(١).

- وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾: وهو نبيُّ الله موسى ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٣٩).

- وقوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾، أي: أخذا شديدا.

فخلاصة هذه المسألة هي إثبات الربوبية والرسالة.

○○○

ثم شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان المسألة الثانية من المسائل الثلاث، فقال:

«الثانية: أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١٨]».

الشرح:

هذه هي المسألة الثانية، وحاصلُها: وجوب إفراد الله بالعبادة، وأن الله لا يرضى أن يُشرَك معه أحد مهما كان، ولو كان ملَكا مُقربا عند الله أو نبيا مرسلا، وهؤلاء أفضل أصناف المخلوقات: الملائكة والرسل، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥].

- ثم استدل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١٨].

وفي المراد بقوله تعالى: ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾، أقوال لأهل العلم؛ منها:

القول الأول: أن المساجد جمع مَسجِد على وزن مَفعِل، اسم مكان، يعني موضع السجود، وهي الأماكن التي بُنيت للصلاة وذكر الله.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعَهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يُوَحِّدُوه وحْدَه[1].

والمعنى على هذا القول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾، يعني: أماكن العبادة.

القول الثاني: أن المراد بـ ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾: أعضاءُ السجود. قال سعيد بن جبير: «نزلت في أعضاء السجود»[2]، يعني: هذه الأعضاء لله فلا تسجدوا بها لغيره، وعلى هذا القول تكون جمع مسجَد بفتح الجيم.

وكما في الحديث عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ**»[3].

وقريبٌ من هذا القول من جعل ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ جمع مسجَد، مصدر ميمي بمعنى السجود، يعني: وأن السجود لله لا يكون لغيره.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٦٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٤).

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٨١٢)، ومسلم (٤٩٠).

وعلى كلٍّ: المساجد المبنية أو الأماكن التي يُعبد الله فيها، وكذلك الأعضاء التي تكون لهذه الهيئة وهي السجود، كلها إنما تكون لله لا لغيره، فلا يجوز أن يُدعى وأن يُعبد مع الله غيرُه.

- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾:

يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة، فدعاء المسألة: يعني الطلب والسؤال، ودعاء العبادة: يعني جنس العبادات، كما قال ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»(١).

- وقوله: ﴿أَحَدًا﴾: هذه نكرة في سياق النهي فتُفيد العموم، أي: جميع من يعبد من دون الله، كما قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ»، يعني: إذا كان الله لا يرضى لهؤلاء فغيرهما من باب أولى.

- وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ»:

كأن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير إلى مسألة الفرق بين النبي والرسول، وهذه مسألة مشهورة عند أهل العلم.

ولعل الأقرب الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الرسول هو من أُرسل إلى قومٍ مكذبين، والنبي من أُرسل إلى قومٍ مؤمنين بشريعة رسول

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، من حديث النُّعمان بن بَشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٠٧).

قبله[1]، فهو يُعلِّمهم ويحكم بينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ [المائدة: ٤٤]، فالنبيون من بني إسرائيل يحكمون بالتوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام.

فخلاصة هذه المسألة الثانية: وجوب إفراد الله بالعبادة.

○○○

ثم انتقل رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بيان المسألة الثالثة، فقال:

«الثالثة: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]».

الشرح:

هذه هي المسألة الثالثة في تقرير مبدأ الولاء والبراء، فذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من أطاع الرسول ووَحَّدَ الله بأنواع التوحيد الثلاثة لا يجوز له موالاة من حادَّ الله ورسوله.

---

(١) ينظر: «النبوات» (٢/ ٧١٨) وما بعدها.

هنا موالاة ومُحادَّة، فما معنى الموالاة؟

الموالاة: يعني أن تتَّخِذَه وَلِيًّا، وأصلها من الولاية وهي المحبة، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤].

فالموالاة بمعنى الحب، ولها مقتضيات من النُّصرة والقُرب وما إلى ذلك، لكن أصل معناها مأخوذ من المحبة.

وأما المُحادَّة فأصلها في اللغة: المخالفة والمجانبة والمعاداة، وهو مأخوذ من الحَدِّ، يعني كأنه في حَدٍّ، والله ورسوله في حَدٍّ آخر، فهذه هي المُحادَّة. ويُعبَّر عنها بالمشاقَّة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤].

إذن، من أطاع الرسول وحقَّق التوحيد بأنواعه الثلاثة يحرم عليه موالاة - أي: محبة - من حادَّ الله ورسوله، وهذا يقرِّرُ الولاء والبراء.

وأصل معنى (الولاء) هو المحبة والمودة والقرب، و(البراء) هو البُغض والعداوة. والمحبة والبغض من أعمال القلوب، أي: محلهما في القلب.

لكنَّ الولاء والبراء لهما آثار ومقتضيات تظهر على اللسان والجوارح؛ فالنُّصرة والأنس والمعاونة والهجرة ونحو ذلك، كلها من آثار ومقتضيات الموالاة، وأضدادها من آثار ومقتضيات البراء.

ودل على هذا الأصل نصوص كثيرة في الكتاب والسُنَّة؛ منها قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله جل وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة:٢٣]، وقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «**أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ**»(١).

وهذا شرط في الإيمان كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي

(١) **حسن بشواهده**: أخرجه أحمد (١٨٥٢٤)، وابن أبي شيبة (٣٤٣٣٨)، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وله شواهد من رواية ابن مسعود، وابن عباس، وأبي ذر، ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٢٨): «الحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحسن على الأقل».

ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠-٨١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الآية: «ذكَر الله جملة شرطية تقتضي أنه إذا وُجد الشرط وُجد المشروط، بحرف (لو) التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة:٨١]، فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب، ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أُنزل إليه»(١).

واستشهد الشيخ – أيضا – بالآية التي في آخر سورة المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ...﴾ [المجادلة: ٢٢]، وفيها ذكر أقرب الأقربين: الآباء والأبناء والإخوان والعشيرة.

فمن حقَّق ذلك (يعني عدم مودَّة من حادَّ الله ورسوله) فليُبْشر بكرامة الله له في الدنيا والآخرة: أما في الدنيا، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، يعني «كتب له السعادة وقرَّرها فِي قلبه، وزَيَّن الإيمان في بصيرته»(٢)؛ فهي قلوب تنورت بهذا الإيمان، نور الإيمان الذي يطرد الشُبَه والريب والشكوك.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٤).

قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾، أي: نور ومدد من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وفي الآخرة قال: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، فهذه الكرامة الأولى؛ الخلود الأبدي في جنات النعيم، والثانية: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، فيُحِل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم. ثم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾، وهذا - أيضا - شرف أيما شرف، حيث أضافهم إلى نفسه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فحكم بفلاحهم، والفلاح: هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، وهي من الكلمات الجامعة.

فهذه فضائل عظيمة، بل خيرات جليلة، في الدنيا والآخرة لمن حقق هذا الأصل المتين ، وهو تحقيق الولاء للمؤمنين والبراءة من الكافرين، والله أعلم.

○○○

المبحث الثالث: الحنيفية، وبيان بعض الأوامر والنواهي:

بعد أنْ فرَغَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بيان هذه المسائل الثلاث بأدِلَّتِها، انتقل إلى بيان معنى الحنيفية ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو أمر له تعلُّق شديد بموضوعات الكتاب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«اعْلَمْ - أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ -، أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وَمَعْنَى ﴿يَعْبُدُونِ﴾: يُوَحِّدُونِ».

الشرح:

- استفتح الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه المسألة بقوله: «اعْلَمْ»، وهذا فيه عناية وشَحْذ وجذب وشد انتباه للمتعلم والسامع والقارئ لينتبه إلى ما بعده، وقد سبق الكلام عليه.
- قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ»:

هذا من شفقة المؤلِّف أن دعا للمتعلم بالرُّشْد، والرُّشْد: هو الاستقامة على طريق الحق، وهو ضد الغواية[1].

(١) ينظر: «المفردات» ص٣٥٤، و«شرح ثلاثة الأصول» للعثيمين ص٧٣.

والطاعة: هي موافقة الأمر؛ فعلا للمأمور وتركا للمحظور، ويُقابلها المعصية[1].

- وقوله: «الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ»:

الملة هي: الدين والشريعة.

والحنيفية مأخوذة من الحَنَف، وقد وردت هذه اللفظة في قوله ﷺ: «**بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**»[2].

وورد في القرآن ﴿**حَنِيفًا**﴾ في عشرة مواضع، و﴿**حُنَفَآءَ**﴾ في موضعين.

وأصل هذه الكلمة من الميل[3]، فالحنف ميل عن الضلال إلى الاستقامة، والجَنَف ميل عن الاستقامة إلى الضلال[4]؛ فهذه الحنيفية هي ملة إبراهيم شيخ الموحدين ﷺ.

وما هي؟

---

(١) «شرح ثلاثة الأصول» للعثيمين ص٧٣.

(٢) **حسن بشواهده**: أخرجه أحمد (٢٢٢٩١)، والطبراني في «الكبير» (٧٨٦٨)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقواه الألباني في الصحيحة (٢٩٢٤).

(٣) قال ابن الأثير في «النهاية» (١/ ٤٥١)، مادة «حَنَف»: «الحنفاء جمع حنيف: وهو المائل إلى الإسلام الثابت عليه، والحنيف عند العرب: من كان على دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وأصل الحَنَفِ: الميل».

(٤) «المفردات» ص ٢٦٠.

- بيَّن لك الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحنيفية التي هي ملة إبراهيم، فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ» يعني: هي عبادة الله «وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ».

والعبادة تُطلق على الفعل وعلى المفعول؛ فإطلاقها على الفعل بمعنى التعبُّد، ومعناها: غاية التذلل لله[1] مع المحبة والتعظيم، ولهذا يقال: طريق مُعبَّد، أي: مذلل.

وأما إطلاقها على المفعول؛ فكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»[2].

فيدخل في هذا كل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال، سواء كانت ظاهرة كالصلاة والزكاة، أو باطنة كأعمال القلوب كالخوف والرجاء والتوكل والمحبة ونحو ذلك.

- وقوله: «مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ»:

هذا فيه إشارة إلى شرطَي قبول العمل، وهما: الإخلاص والمتابعة.

والإخلاص معناه: أن يقصد المرء بعبادته وجهَ الله - تعالى -، ونيلَ ثوابه والوصولَ إلى جنته، بحيث لا يكون عمله وعبادته رياءً للناس أو طلبا لشيء من حُطام الدنيا.

---

(١) السابق ص٥٤٢.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩).

وهذه الحنيفية بهذا التفسير (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)، ليست خاصة بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل هي ملة الرسل والأنبياء جميعا، لكنها أضيفت إلى إبراهيم؛ لأن الله أضافها إليه في كتابه العزيز في ثمانية مواضع؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، إلى آخره.

- قال: «وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ»:

الناس يعني البشر، ولا يُطلق اسم الناس على الجن.

- وقوله: «وَخَلَقَهُمْ لَهَا»:

أي: أمرهم وخلقهم لهذا الغرض؛ وهو إفراد الله وحده بالعبادة مخلصا له الدين.

- قال: «كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]»:

ومعنى ﴿يَعْبُدُونِ﴾: يوحِّدون، وتفسير العبادة بالتوحيد تفسير بالجزء الأهم، فالتوحيد جزء من العبادة، وهو مقصود العبادة وأصلها(١).

وذكر أهل العلم أن العبادة نوعان:

الأول: عبادة كونية:

ومعناها الخضوع لأمر الله الكوني، وهذه شاملة وعامة لجميع المخلوقات، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، فالجميع عبيد لله بهذا المعنى، سائرون تحت تصرفه وملكه، يُدَبِّرُهم كيف يشاء، لا يخرج أحد منهم عما أراده الله وقضاه.

الثاني: عبادة شرعية:

وهي الخضوع لأوامر الله بالامتثال، ولنواهيه بالانتهاء والاجتناب، وهذه هي العبادة المطلوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

○○○

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٢٥): «أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لَا لِاحتياجي إليهم».

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ».

الشرح:

التوحيد: مصدر وحَّدَ يوحِّد توحيدًا، أي: جعل الشيء واحدًا(١).

وفي الاصطلاح: قال: «هُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ»(٢)؛ كأنه يُشير إلى التوحيد الذي وقعت فيه الخصومة بين الرُّسُل وأممهم، والتوحيد الذي لأجله أرسل الله الرسلَ وأنزل الكُتب.

والتوحيد: أن يُوحَّد اللهُ بما يجب له، وهو ثلاثة أقسام ، أن يُوحَّد في ربوبيته، ويُوحَّد في ألوهيته، ويُوحَّد في أسمائه وصفاته.

لكن هذا النوع من التوحيد - توحيد الإلهية - وهو الذي عرَّفه الشيخ (إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ)، هذا هو التوحيد الذي وقعت فيه الخصومة بين الرسل وأقوامهم.

مسألة: خصائص توحيد الألوهية (العبادة):

الأول: أنه الغاية من خلق الجن والإنس؛ ولذا استشهد المؤلِّف بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

---

(١) ينظر: «لسان العرب» مادة «وحد» (٣/ ٤٤٩).

(٢) هذا تعريف المؤلف، وله تعريفات أخرى.

الثاني: أنه المقصود الأعظم من إرسال الرسل وإنزال الكتب، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال جل وعلا: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦].

الثالث: أنه أول واجب على المُكلَّف، وهو مفتاح دخوله في الإسلام: أن يوحِّد اللهَ بالألوهية، وينطِق بكلمة التوحيد.

الرابع: أنه أول ما يُدعى إليه الناس، كما أوصى النبي ﷺ معاذا لما بعثه إلى اليمن، قال: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»(١)، وفي لفظ: «**يُوَحِّدُوا اللَّهَ**»(١).

الخامس: عِظَمُ خطره وأثره؛ فالمخالفة في هذا النوع توقِع المرء في الشرك الأكبر، الذي هو من أكبر المهالك، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ [النساء: ٤٨].

وصاحبه مخلَّد في النار، ولا يقبل الله معه شيئا من الأعمال؛ قال تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا**﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾ [الزمر: ٦٥]، فالآثار خطيرة وعظيمة.

---

(١) تقدم تخريجه.

السادس: أن تحقيقه كفيل بدخول الجنة؛ من حقق هذا التوحيد فقد وعَدَه الله - ووعدُه حَقٌّ وصدق - أنه في الجنة. فإنْ كان معه شيء من الذنوب والمعاصي، فهو تحت المشيئة، لكنَّ مآله إلى الجنة، فلا يُخلَّد في النار لو دخلها.

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه: الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ».

الشرح:

من أعظم ما نهى عنه النبي ﷺ أن يُشرِك المرءُ مع الله غيرَه في شيء من أنواع العبادة، وقد تكاثرت النصوص في النهي عن هذا وتعظيمِه، قال جل وعلا: ﴿**إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان: ١٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا**﴾ [النساء: ١١٦]، وقال: ﴿**إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ [المائدة: ٧٢].

وسُئل ﷺ: أي الذنب أعظمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»(١)، وقال ﷺ: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ**»(٢).

○○○

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٩٣)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ثم أتبَع الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه المسألة العظيمة بذكر دليلها، فقال:

«وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٥]».

الشرح:

وهذا يقرِّر ما سبق: أن الواجب إفراد الله بالعبادة، والنهي عن الإشراك به، فقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، جاءت كلمة ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النهي فتشمل أيَّ شيء، ولو كان مَلَكا مُقَرَّبا، أو نبيا مُرسَلا.

وفي الآية دلالة على كون التوحيدِ أعظمَ المأمورات والشركِ أعظم المنهيات؛ لأنَّ هذه الآية تسمى آية الحقوق العشرة، وقدَّم اللهُ فيها حقه بتوحيده، والنهي عن الإشراك به.

وينبغي على المسلم الحذر من الشرك كبيره وصغيره، جَلِيِّه وخَفِيِّه، قليلِه وكثيرِه، وأن يعتني بتحقيق التوحيد وإفراد الله بالعبادة.

وهذه كلمات مختصرة وتفصيلها في شرح أبواب كتاب «التوحيد» للمصنِّف، والله أعلم.

* * *